ممدوح عدوان

يبدأ الجرح فى وطنى بالتراب الجريح
ثم تحمر منه الدماء
يبدأ القهر من صرخة الأقبية
ثم يمتد حتى السماء
يبدأ الوطن المرتجى من طعام الصغار
ومن الفقر حين تضايقه التسمية
ينبع الفقر من أوجه الفقراء
حينما استغفروا الله مسكنةً
حمدوه على اللقمة المخزية

(الدماء تدق النوافذ)

obeikandl.com

obeikandl.com

ضاعف العمر .. بهجة وفجيعة !!

هل هؤلاء الذين يضحكون ، هم مفجوعون حقًا ؟!

هذا هو شكل العزاء فى (مصياف) . . هناك أعلى جبال (العلويين) فى أقصى الشمال الساحلى السورى . . وهذا أيضًا ممدوح عدوان ابن مصياف الساخر ، والممتلئ بالبهجة والمتعة والحكاية . . والممتلئ أيضًا بحس المسئولية الجاد واحتراف تعرية الأشياء ، وفضح الدموع المعلقة وراء الضحكات .

دائمًا مصياف . .

ودائمًا أهل البلدة . . يتحدث كثيرًا عن طفولته وصباه عن (أخواله) (وأعمامه) . . عن رجال الدين (وعلوم الباطن) وعن خروجه عليهم (بعلوم الظاهر) . . لكنه فى ثنايا الكلام يتوقف أمام درس بيئته (الباطنى) الأول ، ويقصد (ثنائية المعنى) أو مفتاح المجاز الذى هو الباب الحقيقى للأدب . تلك الثنائية التى ضاعفت العمر والشخصية والحياة من حوله . أسأله عن (الحكاية) تلك التى تحتل إبداعه كاملاً شعرًا ومسرحًا ورواية ، فيحكى عن أهالى مصياف وتفننهم العفوى فى اختراع الحكاية .

ممدوح عدوان شاعر إشكالى ، هو نفسه يدرك ذلك . . هكذا يرسم صورته بدقة :

« أنا فى عرف المعارضة (بعثى) وفى عرف السلطة البعثية (متمرد) (ومحسوب على اليسار) .. وفى عرف الإخوان المسلمين أنا (علوى) ،

(*) أجرى الحوار عام ٢٠٠١م - القاهرة - غير منشور . .

وفى عرف علوى السلطة أنا من (الخوارج) .. وفى عرف شعراء الحداثة المتأخرة أنا (كلاسيكى) أحيانًا و (مخبر) أحيانًا أخرى ، ولكننى فى عرف الكلاسيكيين أنا (مخرب للتراث) تحت حماية السلطة » .

* * *

كثيرة هى الهجمات التى تعرض لها ممدوح عدوان تحت شعارات مختلفة . . لكنه تعلم منذ البداية أن يكون دفاعه الوحيد هو أن يكتب ما يريد (**إننى أحسد نفسى الآن ، وأنا المشاكس المشاغب ، أنى لم أضع وقتى فى المهاترات**) ولعل ذلك تحديداً هو ما دفعه إلى ذلك الإنجاز الضخم من الإبداع الثقافى ، حيث أصدر ١٧ ديوانًا شعريًا و٢٧ مسرحية و٣٠ كتابًا مترجمًا ورواية واحدة بعنوان (أعدائى) .

- دائمًا كانت (الازدواجية) إحدى آفات العقلية العربية والشخصية العربية.. وكانت (الثنائية) إحدى أشكالها التقليدية .. كيف تحمّلها كل تلك المعانى الإيجابية ؟

تتحدثين عن الازدواجية . وهى سلبية فعلاً كما تقولين . ولكن هناك شىء آخر أفكر فيه . ربما كان اسمه الثنائية . اسمعى . كانوا ينادون أبى فى عزوبيته « أبو مدحت » ، وحين جئت إلى الدنيا ، وأنا الابن الأكبر من الذكور ، كان من الطبيعى أن يسمينى مدحت . ولكن كان لدى خال (ذو مكانة اجتماعية ، وهو مثقف بمنطق الدين والتراث) ولديه حس عروبى . قال : مدحت اسم تركى . . سموه ممدوح . وهكذا كان . صار اسمى فى السجلات الرسمية ممدوح . ولكن ظل اسمى فى البيت والقرية والأسرة مدحت . ولم أتعامل مع « ممدوح » إلا بعد الذهاب إلى المدرسة .

أنا مدحت وممدوح . وحتى الآن حين أذهب إلى القرية ويأتى من يناديني مدحت . . فإنه يعيد إلى طفولتى القروية بأكملها .

وحدث معى فى السنة الدراسية الأولى حادث ، أراه يحمل دلالة خاصة . كنا نقيم فى البلدة (مصياف) وهناك كنت أذهب إلى المدرسة . ولكن فى العطلة الأسبوعية أذهب مع أعمامى إلى القرية التى أحببتها وتعلقت بها تعلقًا شديدًا . وكنا نذهب سيرًا على الأقدام طبعًا .

ذات يوم ذهبنا (أنا وعمى الذى كان يدرس أيضًا) بعد ظهر الخميس إلى القرية . وكان يجب أن نعود مساء الجمعة . ولكن بعد ظهر تلك الجمعة جاء مطر غزير ، فقرر عمى أن نؤجل العودة إلى صباح اليوم التالى (السبت) . . لم أستطع النوم تلك الليلة . وعند الفجر بدأت أوقظ عمى لكى نعود إلى البلدة ، وإلى المدرسة . ولكن المطر كان غزيرًا جدًا . فقرر عمى ببساطة ألا نذهب . . بكيت وصرخت ، دون فائدة . وضربونى لكى يسكتونى . وبعناد الأطفال قررت العودة وحدى . المسافة تقرب من سبعة كيلومترات ، وركبت رأسى ومشيت ، يجب أن ألحق بالمدرسة .

لم يهتم الأعمام بعنادى وذهابى . توقعوا أن أحرن فى مكان ما وأبكى قليلاً ثم أعود ، ولكننى تابعت طريقى .

فى وسط الطريق هناك نهر جبلى (يجف صيفًا) . ولكن المطر الغزير جعله نهرًا متدفقًا . وبالتالى لم أجد الأحجار الصغيرة التى كنا ندوسها لكى نعبر النهر ، وكان من المستحيل لطفل مثلى أن يعبره .

سرت إلى جانب الضفة بحثًا عن معبر . وبعد حين وجدت جسرًا حجريّاً قديمًا ، فمشيت عليه ، ولكن المطر كان قد جعله زلقًا . وفى وسط الجسر أوشكت على السقوط ، فتمسكت بحجر ، وتوقفت .

الماء يعج تحتى . والريح تضربنى . وصوتها يصفر بين أغصان الأشجار العالية ، وأنا وسط الجسر . . مجرد طفل فى السادسة من عمره ، وأريد الذهاب إلى المدرسة .

كان مدحت ورائى فى القرية . وممدوح فى المدرسة . وأنا أعبر هذا الجسر الخطر بين مدحت وممدوح . هل تفهمينى ؟

فى أسرتنا كلها هذه الثنائية . . أبى يسرع لتجيل الطفل أو الطفلة لكى يحسب الوليد الجديد ، ويعطى عنه تعويضًا (ماليًا) عائليًا . يسمى الوليد كما يرى هو وأصدقاؤه ، ولكن أمى تكون قد قررت اسم الوليد ؛ فيصبح لكل طفل اسمان : اسم فى البيت واسم فى الحكومة . لدى أخت اسمها الرسمى هيفاء ، لكننا لا نعرفها إلا باسم رجاء . وأخت أخرى اسمها الرسمى ختام ، ولكنها بيننا هند . . حتى زوجتى معروفة على أنها إلهام ، واسمها فى الهوية أمية .

وعائلتنا فى القرية كبيرة نسبيًا . ولكن أصهار العائلة (أزواج العمات) من عوائل فقيرة ومتواضعة . . الأولاد كلهم بالنسبة للقرية ينتسبون إلى الأمهات . . محمود الصبرية ، أى ابن العمة صبرية ، وعبد الجميلة ؛ أى عبد الكريم ابن العمة جميلة . ولكنه فى السجلات الرسمية ابن أبيه . . وهكذا يكون له هو الآخر اسمان .

هذه الثنائية لا نحس بإشكاليتها . . يكبر الولد ويصبح ما يشاء (ابن أبيه فى السجلات) ولكنه يظل فى القرية كما يعرفونه : ابن فلانة .

إلى الآن أشعر بشعور خاص مليء بالحنين حين أذهب إلى القرية ، ويتعرف على أحد العجائز فيقول لى : أنت مدحت ؟ أشعر أنه يعيد إلى طفولتى كلها . . طفولتى التى صارت فى ثنايا الذاكرة المنسية ، والتى أزداد حنينًا إليها كلما تقدم بى العمر .

هى ليست ازدواجية كما صرنا نعرفها فى الثقافة . . إنها ثنائية تزيدك غنى . . تعطيك ماضيًا إضافيًا قد يكون منسيًا إلى حين ، وتضيف إليك شخصية أخرى احتياطية . أنا الآن أشعر أننى أستطيع الرجوع إلى القرية بعد الستين من العمر ؛ لكى أصير مدحت المخبأ فى ذاكرة القرية . ولعل هذا يوضح شيئًا من ثنائيتى السلوكية والكتابية . . كثيرون يرون أنى مرح ، ولطيف وصاحب نكتة . ولكن هذا لا يظهر كثيرًا فى كتابتى فأنا شخص متجهم فى الكتابة .

- بأى معنى أنت متجهم فى الكتابة ؟

بمعنى أننى أصبح شخصًا آخر حين أكتب ، ولست واثقًا تمامًا أى الشخصين هو أنا الحقيقى . . هل أنا الشخص المصر على البهجة والمرح والمتعة فى مجالسه ؟ أم أنا ذلك النكدى الذى يصر على تعرية الأشياء وفضح الدموع المعلقة وراء ذلك الضحك ؟

ربما كان للأمر علاقة بفهمى للكتابة . فحين أكتب أشعر بمسؤولية أمام القارئ . . هناك طرف آخر موجود ، ويجب أن أكون صادقًا معه ، وهذا

الصدق يدفعنى إلى تصوير الفاجعة كما أراها . ولكننى حين أعيش حياتى التفصيلية ، أبحث عن متعتى الشخصية وأحاول تغطية الندوب والجراح والنزيف بالدعابة . وحين لا يتقبل الطرف الآخر ، يمكن الاعتذار وتغيير الإيقاع . . فى الكتابة لا تراجع عما يُكتب .

ربما أيضًا ورثت شيئًا من هذا من بيئتى . حتى فى العزاء يجلسون ويتسامرون ويتقدم الضحك ليحتل مكانًا بين الدموع ؛ الأمر الذى قد يستكره مراقب خارجى ، ويجعله يتساءل : هل هؤلاء الذين يضحكون هم مفجوعون فعلاً ؟

- دائمًا الحكاية .. حاضرة فى الكلام ، فى القصيدة وفى كل إبداع تمارسه ؟

لعل هذا أهم ، وأبرز ، ما ترسب لدىَّ من البيئة الأولى التى عشت فيها طفولتى ويفاعتى . . الحكاية هى الزاد المتداول فى الحياة اليومية . يكون الرجل فى أوج انفعاله ، وهو يتحدث بعصبية ويصرخ . وبغتة يكمل استرساله بحكاية قصيرة ذات دلالة ، تساعد على تكثيف ما يريد أن يقوله . وتعف الحكاية صاحبها ، فتعفيه من تقديم التبريرات أو التفسيرات لسلوكه .

أحكى لك حكاية ؟ كان ابنى زياد يدرس فى لندن ، موفداً من وزارة التعليم العالى لدينا . وكان الراتب الذى يعطونه إياه غير كاف ؛ فكنت أؤمن له ما يتكمل به عيشه ودراسته من جيبى . وذات يوم اشترك فى مسابقة « من سيربح المليون » ، وربح ما يعادل ثلاثين ألف دولار . وبفرح شديد اتصل بى ليسألنى : « هل أنت بحاجة إلى أى شىء ؟ أتريد

شيئًا يا أبى ؟ » وكنت أريد أن أقول له : « يكفينى أنك لم تعد فى حاجة إلىَّ . . يكفينى أننى لن أتعب نفسى بعد اليوم فى تأمين حاجياتك واستكمالها » . ولكى لا يأتى الحديث جافّاً أو عاطفيّاً ، قلت له : ذات يوم رأى الفأر هرة فركض مذعوراً . وفيما هو يركض زلقت رجله فترنح . قالت له الهرة : « أعانك الله » فقال لها : « أتركينى بحالى وأنا بألف خير من الله » .

هكذا نستعين بالحكاية . . ولابد أن هذا « التعبير عن طريق الحكاية » قد انتقل بشكل ما إلى قصيدتى ، ولكن القصيدة لا تحكى حكاية . إنها تستعين بالحكاية ، وتتحول الحكاية إلى متابعة نمو : نمو الفكرة ، نمو المشكلة ، نمو العاطفة ، وتكثيف ذلك كله بأقل قدر من الكلام . وكم أتمنى لو توصلت إلى ؛ حيث أكثف ما أريد بمقدار ما تستطيع الحكاية أن تكثف ما يريده راويها .

- هل كانت الحكاية أيضاً هى مدخلك إلى المسرح ؟

الأمر أكثر دقة . . إنها الحكاية ، ولكن هناك طريقة تقديم الحكاية . وفى بيئتى تفنن عفوى فى هذا التقديم ، يجعل المرء يستمع إلى القصة أو الطرفة ، أكثر من مرة دون أن يشعر بالتكرار .

هذا هو المسرح ، أو طريقى إلى المسرح . استعذاب تقديم القصة ، والتفنن فى هذا التقديم . وحين كتبت المونودراما كنت أستعير طريقة التقديم هذه . . حتى فى الرواية ، حين كتبت « **أعدائى** » كتبتها كما يمكن أن يحكيها ابن قريتى .

- بين المسرح والقصيدة كيف تكون الحكاية ؟

فى القصيدة يختلف الأمر . إذا اعتمدت القصيدة على الحكاية ، اكتفت بلمسات سريعة قد تحتوى على تعبيرات البيئة أو لا تحتوى . لا تكون الحكاية هدفًا ، ولا يكون السرد فنًا مقصودًا . . على العكس قد يكون السرد مفسداً للشعر .

- كثيراً ما خرجت على تقاليد البيئة الاجتماعية بصرامتها الدينية .. لكنك فى الشعر كنت ابناً للأصول والتقاليد ، عرفت الشعر من الالتزام السياسي وبدأته بالوزن والقصيدة العمودية ، وكثير من الشعراء يعتبرونك من الشعراء الكلاسيكيين ؟

كان للشعر وظيفته منذ النشأة الأولى . . الشعر الذى كان يردد على مسامعنا يريد التعبير عن « السر » الكامن . وهو سر دينى . كانت الأدبيات كلها تسعى إلى المحاججة للدفاع عن حق « آل البيت » فى الخلافة ؛ أى إن الشعر كان يدافع عما يراه حقاً وعدلاً . ولذلك ، على ما أظن سهل على استخدام الشعر للدفاع عما أراه حقاً وعدلاً . وبما أننى لم أكن متدينًا . . فإن العدل الذى صرت أسعى لخدمته كان عدلاً اجتماعياً . فتصدى لاستغلال الإقطاع (والزعماء) ، وحتى استغلال رجال الدين لوضعهم ، ثم استغلال الرجل لكل ثقافة البيئة من أجل تعزيز اضطهاده للمرأة وتهميشها .

بعد ذلك توسعت دائرة المعرفة ، فتوسعت جبهة الخصوم حتى شملت الصهيونية والاستعمار والزيف الثقافى ، وكان الخروج على تقاليد البيئة مساعداً فى تقبل الخروج على تقاليد الشعر .

- وبالعودة إلى ما ذكرته عن الفارق بين تعامل التقليدية مع قارئها وتعامل الحداثة مع قارئها ؟

كان من السهل علىّ رفض « باطنية » الدين ، إذا كان هذا الدين هو المنقذ ، فلم هو سرى ولا يشاع بين الناس لإنقاذهم ؟ خرجت إذًا فى البدء على الباطنية ، ثم ارتبط هذا الخروج بالاحتجاج على تميز رجال الدين عن الآخرين حتى من أبناء الطائفة ، وهذا ما عزز اعتقادى بأن المعرفة قوة . . فخرجت على احتكارها . كما أن الجهل ضعف ، وقد عرفت منذ صغرى أن هناك من يسعى إلى ترسيخ الجهل ومنع العلم . كان فى منطقة الغاب زعيم يصل دائمًا إلى المجلس النيابى بقوة عشيرته . ولكن هذا الزعيم منع ، طوال مدة نفوذه ، أن يُفتح طريق واحد فى منطقة الغاب كلها (مساحتها بقدر مساحة هولندا) ، أو أن تفتح مدرسة . وحين بدأنا نتعلم ، وبدأ أهلنا يعتزون بنجاحاتنا ، بينما لم يتعلم جيدًا أبناء الزعماء ، صارت الحجة التى يحاربوننا بها ، ويحاربون أهلنا بها هى : غدًا يتعلمون فيترفعون عن العمل فى الأرض . إذا كان الجميع سيتعلمون فمن سيشتغل فى الأرض ؟ كما أن رجال الدين كانوا يحاربون تعلمنا بحجة أن العلم (علم الظاهر) سيؤدى إلى إضعاف إيماننا وإفساد صلتنا بالدين (الباطنى) .

وهناك أمر آخر أشد خطورة ، وهى اعتبار أن الدين يقوم على التسليم بما يقال ، دون مناقشته ، وأن استخدام العقل والحجة سيقود إلى الكفر . وهذا ما حدث مع إبليس ؛ إذ استخدم العقل والمنطق فى محاجة الله عز وجل ، فقاده ذلك إلى الكفر واستحق اللعنة .

وللرد على ذلك ، كنا نتناول الموضوع من زواية أخرى : بما أن الله ميز الإنسان عن الحيوان بالعقل ، كيف تريدون لنا إلغاء هذه الميزة التى هى هبة من الله ؟

- هل كان اتكاؤك على الماضي كثيراً وراء تأخير معرفتك الجمالية بالحداثة واحتفاظك كثيراً بتقاليد شعرية ثابتة ؟

البيئة التى عشت فيها لم تكن تتعامل مع المطبوع ، بل مع المكتوب والمنسوخ باليد ؛ ربما لأن الديانة الباطنية ، يتم تداولها سراً ، ولهذا كان يُنظر إلى المطبوع بشىء من الريبة .

والمطبوعات الوحيدة التى كان يتم التعامل معها هى القرآن ونهج البلاغة والشعر الجاهلى (**والعربى القديم عمومًا**) . لكن هذا كله اسمه علم الظاهر ؛ فالباطن هو الأساس . والباطن يتعامل مع ما يراه المعنى الحقيقى للأشياء ، وهو منسوخ باليد لضمان السرية .

يضاف إلى ذلك عزلة المنطقة الجبلية والفقر .

أنا ابن تلك البيئة . ولذلك لم أجد فى متناولى إلا تلك المطبوعات التى أشرت إليها . وبسبب انتقالى للعيش مع أهلى فى البلدة (مصياف)، ثم لإكمال تعليمى (أُرسلت وحيداً للدراسة الثانوية فى حماة وحمص ، بسبب عدم توافر المدرسة الثانوية فى مصياف فى ذلك الحين ، ثم إلى دمشق للدراسة الجامعية) . وبهذا استطعت التعامل مع شىء من المطبوعات فى المجال الثقافى وليس التعليمى . لكن تربيتى الأولى هى التى وجهت اهتمامى ، فكان آخر أدب (**حديث**) أمامى قبل الجامعة هو الأدب المهجرى . . وبالطبع كان لابد من نزار قبانى ، شأن كل مراهق .

لقد أخر هذا فى اتصالى بالحداثة لكنه ، على ما أظن ، جعلنى أصل إليها وأنا متمكن من التراث .

وقد بقيت فترة حتى (**استوعبت**) الحداثة وفهمت ما تبحث عنه وما تريد التعبير عنه ، وطريقتها فى التعبير . ومع أننى ترددت فى البداية فى قبول الحداثة . . إلا أننى سرعان ما انسجمت معها وانغمست فيها .

- ما الذى لفت نظرك إلى الحداثة ؟

أول ما لفت نظرى فى الحداثة هو احترامها لقارئها . الحداثة تتعامل مع إنسان تعتبره « قادرًا على الفهم والاستيعاب ، ولديه حساسية نامية تساعده على التلقى » . بينما التقليدية تريد تلقينه كل شىء ، وبالتالى فالتقليدية تعلم قارئها ، بينما الحداثة تدعوه لمعايشة تجربتها ؛ لأنها تثق أن التجربة مشتركة . ودور الكتابة الحديثة هو فى جعل قارئها يكتشف تجربته المخبوءة .

ولنأخذ الحب مثلاً . . نقرأ الشعر التقليدى ، فنعرف كيف كان الشاعر يحب . . بينما قصيدة الحب الحديثة تجعلنا نكتشف أننا نحن أيضًا نحب بهذه الطريقة .

ولكن بيئتى علمتنى شيئًا آخر . . علمتنى البحث عما وراء المعنى الظاهرى للكلام . ووجود معنى آخر للكلمة غير معناها الظاهرى (**وحسب استخدام الشاعر لها**) يغنى الشعر ويميزه ، ولعلنا نستطيع اعتبار ثنائية المعنى مفتاح المجاز الذى هو الباب الحقيقى للأدب .

- لم تقدم سوريا (المكان) إنجازاً حداثيًا فى الشعر بينما الشعراء السوريين (نزار قبانى - أدونيس - يوسف الخال - محمد الماغوط) يصيغون حداثة القصيدة فى مكان آخر .. فى (بيروت) ؟

المسألة مرتبطة بالحرية . . فى سورية ومنذ الاستقلال ، أواسط الأربعينيات ، والانقلابات العسكرية تتوالى علينا . والعسكر خلقهم ضيق . . لا يطيقون الثقافة . . يحتاجون إلى مدّاحين . . كل منهم يظن نفسه سيف الدولة الحمدانى ، ويريد أن يجد المتنبى إلى جانبه . ولكنهم يتشككون بكل شاعر غير مداح ، حتى لو كان محايداً . فى أواخر الأربعينيات ، انعقدت جلسة خاصة للمجلس النيابى السورى للاحتجاج على قصيدة « خبز وحشيش وقمر » لنزار قبانى . وذات يوم كان عندنا وزير إعلام قال : لسنا فى حاجة إلى شاعر من الدرجة الأولى إذا كان محايداً . . شاعر مؤيد ومن الدرجة الخامسة أفضل لنا منه ، وقال : ومن هم هؤلاء المبدعون ؟ نحن نصنع المبدعين حين نشاء .

وهكذا أبعد المثقفون عن المنابر الثقافية . وصاروا واضحًا بأن من يريد أن يجعل صوته مسموعًا عن هذه المنابر ، يجب أن يتحول إلى مدّاح ومنافق وشاعر مناسبات .

ولذلك كان الباحثون عن حرية التعبير يذهبون دائمًا إلى بيروت القريبة ، والتى تتوافر فيها الحرية . وكنا نحن ، حتى دون أن نهاجر من سورية . . ننشر معظم نتاجنا فى بيروت ، ولكن البعض فى الخمسينيات - بعد اغتيال عدنان المالكى - هربوا من سورية لكى يتجنبوا السجن وربما الإعدام ، وكان هؤلاء قوميين سوريين . وفى أيام الوحدة مع مصر أيضًا هرب الشيوعيون والبعثيون إلى لبنان .

وهذا يفسر تألق الحداثة على منابر بيروت (**مجلة الشعر والآداب**) . ولكن هذه الحداثة كانت تقوم دائمًا على أكتاف سوريين وعراقيين وفلسطينيين ، إلى جانب اللبنانيين والمصريين .

ومن هم شعراء الريادة الحداثية ؟ السياب والبياتى وسعدى يوسف عراقيون . جبرا وتوفيق صايغ وسلمى الجيوسى فلسطينيون . أدونيس ونزار قبانى وخليل خورى سوريون . الفيتورى سودانى (أو ليبى : الله أعلم) . حجازى وعبد الصبور مصريان . ضعى إلى جانب هؤلاء يوسف الخال وأنسى الحاج اللبنانيين تكتمل الصورة . ولكنها وحدهما ما كانا ليخلقا حركة حداثية حقيقية ، ولم يكن الآخرون ليؤسسوا لتلك الحداثة لولا مناخ الحرية فى بيروت .

فليست دمشق وحدها التى لم تكن صالحة لنمو الحداثة . بغداد أيضًا كانت تشكو مما تشكو منه دمشق . . وأظن أن أكثر من عاصمة عربية تشبه دمشق من هذه الناحية .

ولكن الحداثة من صنع هذا الجمع العربى .

ثم جاءت أفواج الأجيال التالية . وكانت أيضًا خليطًا عربيًا ، ولكنه متجه إلى بيروت .

بيروت المكان كانت تتيح المجال لحرية الإبداع وحرية التجريب . وكان صدرها واسعًا لنشر كل شىء . ونضيف أيضًا انفتاحها على الثقافة الأوربية (والفرنسية بشكل خاص) ؛ مما يوسع آفاق التجريبيين . ولذلك صارت قبلة الباحثين عن حرية التعبير . فى هذا الجانب لبيروت فضل لا ينسى .

- كيف كنتم تنظرون إلى الشعراء الباحثين عن الحرية (خارج دمشق) هناك في بيروت / أدونيس ، الخال ، الماغوط ، نزار ؟

لهذه المسألة وجهان . . أنا كنت دائمًا ضد الهجرة ، وكان مبدئي أن الوطن هو ما تستطيع أن تصنعه وأنت فيه . والحرية هي ما تستطيع أن تناله وأنت في وطنك ، وبالتالي فقد كنت أحمل شعورًا معاديًا للمهاجرين .

الشعراء الذين تذكرينهم كانوا قد هاجروا قبل أن آتي إلى العاصمة . بمعنى : قبل أن يتكون وعيي حول كثير من المسائل ، وهذا ما جعلني أتفهم تجربتهم بحياد أكبر . وكانوا بالنسبة لي روادًا في الحداثة أتطلع إلى تجربتهم بإعجاب ، وكانوا ينشطون على منابر ثقافية (**مجلات ثقافية ، وبالتحديد شعر والآداب**) يطمح كل شاب طالع إلى النشر فيها .

وقد تعاملت منذ البداية مع « الآداب » ، ونشرت فيها وتعرفت على رواد الحداثة فيها ، دون أن أفقد صلتي (**بوصفي قارئًا ومتابعًا**) بمجلة «شعر» .

الحرية التي كانوا ينعمون بها لم تكن بالنسبة لي حرية سياسية . . بل هي حرية التجريب وفرصة المغامرة الإبداعية ، وهما أمران لم يكونا متوافرين لنا في دمشق ، ونحن نعمل في صحافة رصينة وملتزمة . . لقد خضنا معارك طويلة ؛ حتى أثبتنا حقنا في كتابة القصيدة الحديثة .

الأيديولوچيون ؟ « آخ » منهم ..

- اتهمت من قبل الأيدلوچيين بأنك شاعر سلطة خاصة فى انتمائك (البعثى) ؟

مشكلتى أننى فى بداية حياتى كنت بعثيًا .

أنت لا تعرفين أى إشعاع تثقيفى وحضارى وتعليمى فعله البعث فى مناطقنا الفلاحية قبل استلامه السلطة . . تحريض ضد الإقطاع والزعماء . . تعليم مجانى أو شبه مجانى . فتح الحزب مدارس لتعليم أبناء الفلاحين . أكرم الحورانى كان نبيًا ثورياً . . استطاع أن يوصل الفلاحين إلى حمل السلاح فى وجه الإقطاع والسلطة . قرى كثيرة صارت ، بقوة السلاح ، تستولى على مواسمها وتخفيها فى المغاور والجبال ، ويأتى الدرك (شرطة القرى) فيحتلون القرية ، ويضمنون الموسم القادم للإقطاعى . فى العام التالى يعود الفلاحون ويستولون على المحاصيل . وتشجيع لا حدود له على التعليم . . بالتعليم ننقذ أنفسنا ومجتمعنا ، والتعليم مجانى . . حتى الأساتذة كانوا بعثيين متطوعين بأكملهم .

هكذا صرت بعثيًا . . كان هذا منسجمًا مع تمردى الطفلى العفوى ، ومع رغبتى فى العلم .

بعد ذلك استلم البعث السلطة . . فصار سلطة يجب التمرد عليها ، وتمردت . ولكن الأيديولوچيين أصروا على تثبيتى عند بعثيتى الأولى .

وحين نشر بو على ياسين ونبيل سليمان كتابهما « الأدب والأيديولوچيا فى سورية » كانا غبيين بالمعنى النقدى . . فقد قرآ الأدب بأحكام مسبقة على الأدباء . . هذا بعثى يجب شرشحته . . وذاك قومى سورى يجب فضحه . . وذاك يسارى يجب تكريسه . . كان الحكم سابقًا على القراءة ، وذلك كله تحت قناع الماركسية .

حين ناقشت الكاتبين فى كتابهما ، قلت لهما إنكما ترتكبان جريمتين معًا : الأولى هى أنكما تقدمان نفيكما كجاهلين فى الأدب ، والثانية هى أنكما تقدمان الماركسية على أنها ضد الأدب والإبداع . ولكننى لم أرد عليهما كتابة . . أنا خبيث ؛ فهما كانا فى حاجة إلى الاستماع بضجة ثقافية ، فحرمتهما منها .

وليست هذه إشكاليتى الوحيدة . فأنا فى عرف المعارضة بعثى . وفى عرف السلطة البعثية أنا متمرد ومحسوب على اليسار ، وفى عرف الأخوان المسلمين أنا علوى ، وفى عرف علويى السلطة أنا من الخوارج . . وفى عرف شعراء موجة الحداثة المتأخرة أنا كلاسيكى أحيانًا ، ومخبر أحيانًا أخرى . وذات يوم أقسم أحدهم أننى أتقاضى على التقرير أضعاف غيرى من المخبرين ؛ فعلق صديقنا على الجندى : ربما كان هذا صحيحًا لأن ممدوح يكتب تقاريره شعرًا . . ولكننى فى عرف الكلاسيكيين أيضًا مخرب للتراث تحت حماية السلطة .

منذ البداية هدتنى بديهتى إلى عدم إضاعة الوقت فى المماحكات المجانية . . ذات يوم اشتبكت مع شعراء كلاسيكيين فى منتدى ثقافى . اتهمونا بأننا نهدم التراث ، وأننا عملاء استعمار ، وبأننا نسىء إلى

قداسة اللغة . . فوقفت وقلت لهم : لن نرد عليكم إلا بالشعر . . سنظل نقدم شعراً إلى أن نلغى وجودكم . . « سنقتلكم شعراً » .

وهكذا كان .

طوال عمرى وأنا أتعرض لهجمات تحت شعارات مختلفة ، ولكننى كنت أقول لنفسى دائماً : أكتب ما لديك فهو دفاعك الوحيد عن نفسك .

إننى أحسد نفسى الآن ، وأنا المشاكس والمشاغب ، أننى لم أضع وقتى فى المهاترات .

موت الأيديولوچيا :

موت الأيديولوچيا ، ونهاية التاريخ ، وصراع الحضارات تعابير غربية وأمريكية تحديداً . . إنها إشارات إلى انتصار الرأسمالية .

أنا أعرف أن الرأسمالية قد انتصرت ، وأعرف أن تجربة الاشتراكية قد فشلت . ولكن هذا لا يعنى موتها ، والقائلون بموت الأيديولوچيا لا يقصدون إلا موت الفكر الاشتراكى .

ولكن هل مات هذا الفكر حقاً ؟ هل انتهت الحاجة إليه ؟ هل تحقق العدل فى العالم بعد سقوط التجربة الاشتراكية ، حتى تنهى شرعية المطالبة بالحد الأدنى من الحياة الإنسانية الكريمة ؟ فلسطين لم تنه مشكلتها . . الفقر فى العالم يتفاقم .

حتى فى بلدان العالم الاشتراكى السابق ، ازداد الفقر وتهدمت الثقافة ، واستفحل البؤس والقهر والظلم فى العالم ، الذى صارت أمريكا تسيطر عليه الآن . وهذا يعنى لى إعادة إحياء للأيديولوچيا ؛ لأن

الحاجة إليها تزداد . . أمريكا لم تستطع أن تملأ الفراغ الذى تسبب به فشل التجربة الاشتراكية وسقوطها . . أقامت مكانها سطوة السلاح الفتاك لحماية الاستثمارات وتجويع الشعوب وإذلالها ، حتى الآداب والفنون تراجعت لصالح السوق .

ونحن نشكو من نقص المناعة الفكرية . . سرعان ما نتلقف الشعار ونردده .

حتى فشل التجربة لا يدين الفكر . . وحتى القمع الذى مورس باسم الاشتراكية والذى يدينها لا يلغى الحاجة إليها . . هل ندين المسيحية لأن محاكم التفتيش قامت بمجازر باسم المسيحية وباسم الدفاع عنها ؟ هل ندين الإسلام لأن الحجاج ضرب الكعبة بالمنجنيق ؟ أو لأن الخليفة العباسى الأول كان سفاحًا وقائده العسكرى أبو مسلم الخراسانى كان جزارًا ؟

لا . . نقول إنه من الممكن أن نعيش حياة مسيحية دون محاكم تفتيش ، وحياة إسلامية دون الحجاج أو أبى مسلم الخراسانى . . وبالتالى نستطيع أن نطبق الاشتراكية دون قمع وديكتاتورية .

أنا من هذه الناحية « دقة قديمة » . . مازلت أؤمن بما كنت أؤمن به منذ البداية . . مازلت مؤمنًا بأننى عربى وفى حاجة إلى الوحدة العربية . . ومازلت مؤمنًا أن فلسطين عربية وأن لى الحق فيها كلها . . ومازلت مؤمنًا أن لا شىء يحل لنا مشكلات حياتنا إلا الاشتراكية .

هذا يعنى لى أن الأيديولوچيا لم تسقط ولم تمت . . سقط بعض الأيديولوچيين ، وبعض هؤلاء يتبنون الأفكار مثلما يلبسون ملابسهم

أو يقصون شعرهم على الموضة . . يؤمنون بالاشتراكية عند حدوث مدها، ثم يكفرون بالاشتراكية ظانين أن موضتها قد انتهت . . ويؤمنون بعروبة فلسطين ويكتبون الشعر عنها ، ثم حين تأتى مبادرات السلام ينسون حقنا فى فلسطين .

- فى (وهذا أنا أيضًا) حاولت أن تقدم بعض التفاصيل الحياتية اليومية بعيداً عن السياسة والقضايا العامة ، ولكنك لم تعاود التجربة ؟

أظن أننى تابعت التفاصيل اليومية بعد « وهذا أنا أيضًا » ولكن تلك المجموعة - حتى فى عنوانها - كانت تريد الإشارة إلى أن الشاعر لا يتجزأ . . أنا الذى قدم الهموم السياسية فى شعره ، وأنا أيضًا من يحب ابنه والليل والمرأة والقمر وصوت المطر ، وأفكر فى أبى وأحزن على موت أمى . . وأنا الذى أنتبه إلى تفتح الزهرة ، مثلما أنتبه إلى بقعة الدم التى يخلفها الشهيد وراءه .

لا أتمنى أن نفصل بين هذه الأمور . . نحن نعيش الحياة ، ونكتب ما نعيشه ، ولكن هناك من يريدون إبعاد الشعر عن موضوعات معينة ، وهم يترفعون عن الحياة وموضوعاتها . ومع أنهم يتبنون موقفًا هجومياً على الأيديولوچيا على أنها مفسدة للشعر ، إلا أنهم فى حقيقة الأمر أيديولوچيون حتى النخاع ، وأيديولوچيتهم تقوم على انتقائية خاصة تعتبر أن الناس لا يستحقون أن نكتب عنهم . . ليس هذا فقط ، بل يرون أن الناس لا يستحقون أن يقرأوا الشعر . . يريد هؤلاء الشعراء ونقادهم المروجون لهم أن يظلوا نظيفين وبعيدين عن غبار الحياة ؛ لأن القصور النظيفة هى التى تستحق أن يعاش فيها .

ولكن ماذا نفعل إذا كان هناك فقراء يعيشون فى أكواخ ؟ وهؤلاء يعشقون ويغنون ويعيشون . . وهم مثلنا لأنهم أهلنا ، ونحن قد ربينا فى هذه الأكواخ والقرى ، ونراها تستحق أن تكون موضوعات شعرية .

حسن .

الأيديولوچيا لا تحمى الشعر ولا تبرره . . الشعر لا يبرره إلا شاعرية الشاعر ، ولكن كيف أستطيع أن أحب الجمال ولا أحب العدل ؟ وكيف أنفر من القبح ولا أنفر من الظلم ؟ وكيف أستطيع أن أدلل كلبًا أو قطة فى بيتى ، ولا أستطيع أن أرى طفلاً ينام على الرصيف أمام البيت ؟

ولكن لابد أن نضيف أن القضايا الكبيرة والعظيمة لا يخدمها إلا فن عظيم . . فقر الإبداع لا تبرره عدالة قضيته .

* * *

- تلك الغزارة الإبداعية وفى مجالات مختلفة (شعر - مسرح - قصة - تليفزيون) ..

لا أعرف كيف أجيب عن السؤال حول تعدد المجالات التعبيرية التى اشتغلت فيها . . إننى ببساطة أعمل ما أشعر أننى أستطيعه ، وأنا أطالب نفسى طبعًا بإتقان الفن الذى أتعامل معه : قصة ، رواية ، مسرحية ، قصيدة ، مسلسل تليفزيونى ، مقال صحفى ، ترجمة . . إلخ ، وأسعى إلى زيادة معرفتى بهذا الفن أو ذاك . وبالتالى فأنا أكتب القصيدة كما أرى أنها أفضل طريقة لكتابة القصيدة ، وكذلك الأمر فى أى مجال تعبيرى آخر .

الهاجس الجمالى موجود حتمًا . . لكنه يجب أن ينبع من النص ، لا أن يُفرض عليه من خارجه . . لا أحد يقول : سأكتب قصيدة أو رواية لكى أطور الشعر أو الرواية . . هو يكتب القصيدة أو الرواية حسب معرفته بالكتابة الشعرية أو الروائية ، وهذه المعرفة تتطور وتتراكم فيها التجربة والثقافة ، فتتطور معها كتابة الشاعر والروائى . . يتطور شعره أو روايته ، ويتطور الشعر والرواية عامة بإضافته التى حققها .

بعد ذلك يأتى التنظير وتأتى أحكام القيمة . . يدرس الدارسون الإبداع ويضعون النظريات للتلاميذ لا للمبدعين . . المبدعون لا يتقيدون حتى بالأحكام المستخلصة من إبداعهم . . فى كل مرة مارس المبدع إبداعه . . فإنما يفعل ذلك ، وكأنه يفعله لأول مرة فى تاريخه .

* * *